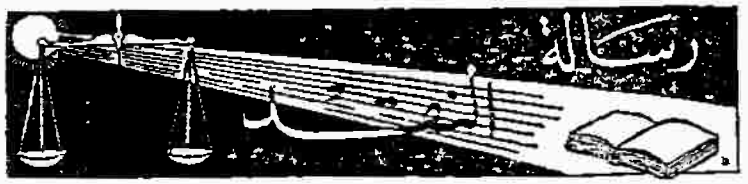

ليالى الملاح التائه

ديوان الأستاذ على محمود طه

للأديب عبد العليم عيسى

الشعر كالحياة من حيث مظهره ومصدره ؛ فهو من حيث المظهر متفاوت التقدير عديد الألوان ، ومن حيث المصدر واحد لا يتجزأ ولا يقاس ولا يتنوع ...

فالحياة فى التعلب هى بعينها الحياة فى الأسد ؛ ونحن لا نعظم الحياة فى الأسد لأنها أشرف وأجل من الحياة التى تسير التعلب ، ولكن لأنها قد اتخذت لها فى الأسد مظهراً واسعاً مكتملاً عريضاً أوسع وأكمل وأعرض من المظهر الذى اتخذته فى التعلب[1] ...

على هذا القياس الحق ، ترانا نفضل هذا الشاعر على ذاك الشاعر ، وترانا نستحسن هذا الشعر ولا نستحسن ذاك ، ونحن فى هذا التفضيل والاستحسان لم نرد إلا أن المظهر الذى ظهر فيه شعر الأول أحسن وأتم وأوسع من المظهر الذى ظهر فيه شعر الثانى ؛ أما شعرهما من حيث القيمة فهو واحد لا تفاوت فيه ...

من بين شعرائنا الذين نقدرهم ونستحسن شعرهم ، شاعر رقيق رشيق هو الأستاذ على محمود طه فهو شاعر يسق قلمه من ينابيع قلبه الجياش بالعواطف ، وروحه الهائجة السبوح . وهو شاعر عانقت روحه روح الكون الجميل ، فجاءت أشعاره واسعة متفتحة ناعمة ، تسمع فيها دقات أنباض الحياة ، وتتنسم منها نسمات الجمال والخلود ...

قرأت « لياليه » فشعرت بلذة روحية عجيبة ، وأحسست بانفعالات تهزنى وتنعشنى ، وتوقظ نفسى وترهف حسى ، وتفتح أمامى آفاقاً من النور والجمال والبهاء ...

وهل أنا أطلب من الشاعر غير هذا ؟ ... كفى بالشاعر أن ينقلنى من عالمى المادى الحقير ، إلى عالم سماوى نضير ، تحير فيه أطياف الحسن والسحر والفتون ، فأنسى فيه — ولو قليلاً من الزمن — رغبات الأرض وشهوات ابن التراب !! وأنت لو ذهبت تعد شعراءنا جميعاً عملك تجد فيهم من يسمو بك إلى عالمه ، ويشعرك بالحياة المتدفقة الفائرة مثل هذا الشاعر ، ما وجدت — للأسف — غير شاعرين أو ثلاثة على الرغم من وفرتهم وتبجحهم وجعجعتهم!

إن من بين شعرائنا من هم إذا كافوا بشىء آخر كافهم بالشعر ، لجاءوا بالعجب العجاب ولب اللباب ؛ ولكنك إذا ذهبت تصارحهم بهذا رأيتهم هاجوا وماجوا ، كأنك تريد أن تسلبهم أرواحهم ! ومن العجيب أنك لا تلبث أن تسمع منهم من يقول فى غطرسة وكبرياء : « أنا المجلى وغيرى تابع تال » ...

وآخر يقول :

قد صرت وحدك فى اللو ك وصرت فى الشعراء وحدى

وثالث يقول :

لولا غنائى وشعرى لمات روح الوجود

وهكذا وهكذا تسمع ما يؤلم قلبك ... ويشجى روحك !

إذن يجب علينا أن نفرح بظهور الشاعر الحق فرحنا بظهور الوليد الجديد ، ويجب علينا أن نحبه ونقدره ونجله ؛ وما حبنا وتقديرنا وإجلالنا ، إلا حب وتقدير وإجلال للحق والخير والجمال وهى القيم المنشودة التى تسعى إليها البشرية وتبحث عنها فى جميع أطوارها ومراحلها . وشاعرنا المحظوظ « على طه » هبة سماوية أطلعتنا على آفاق جديدة فيها جمال وخير وفيها أحلام وآمال ...

قلت إن شاعرنا محظوظ ، وأنا أقصد بهذا أنه يحيا حياة شعرية مليئة بالأفراح واللذات ، مترعة بالأحلام والمغامرات . فليس فيها آلام ولا أحزان ، وليس فيها أهوال ولا شكوك ، ولا تردد ولا حيرة ... وأنت لو فتشت فى ديوانه كله ما عثرت على بيت واحد يشعرك أن هذا الشاعر مرت عليه أوقات فيها تقبض وفيها ألم ، ولكنك تعثر على أبيات كثيرة فيها اللذة السامية ، وفيها النشوة السارية ، وفيها الفرح الشامل ...

هو اليوم فى مدينة « فينيسيا » عروس الأدرياتيك حيث الجمال والحسن المشاع ، وحيث الجنادل المزدانة بالمصابيح الملونة والضفائر الوردية . فلا يلبث أن يوحى إليه هذا الجو الفاتن أنشودة « الجندول » الموسيقية الرائعة الرقيقة الخالدة ...

وهو اليوم فى « بحيرة كومو » التى جذبت إليها كثيراً من

(١) قرأت كلاما قديما للأستاذ ميخائيل نعيمة فيه معنى تلك الجملة ...

الشعراء فألهمتهم أرق أشعارهم وأعذب أغانيهم ؛ فلا يلبث أن تلهمه أنشودة بارعة ، ويهديها إلى صديقة أمريكية كانت ترافقه

وهو اليوم فى مدينة « زيوريخ » على شاطئ بحيرتها ، حيث الاحتفال بعيد سويسرا الوطنى الأكبر ، بين المواكب الصاخبة المرحة ، وأنوار المشاعل ، والأسهم النارية ، وأضواء معرضها العظيم ؛ فتوحى إليه تلك الفاتن الساحرة ... أنشودته الساحرة « تايس الجديدة »

وهو اليوم على ضفاف « نهر الرين » ذلك النهر الذى يتفرد بجنات أعنابه ، وأشجاره الباسقة ، وقصوره التاريخية ؛ فيوحى إليه هذا الجو الرائع الجميل قصيدة « خمرة نهر الرين » ثم يهديها إلى صديقة سويسرية التقى بها هناك ...

وهكذا وهكذا ترى شاعرنا سارحاً متنقلاً فى أمكنة الفتون والجمال ، وهو فى كل مكان سعيد محظوظ مغامر . له فيه محبوبة سعيدة محظوظة مغامرة ؛ فجاءت أشعاره لها طابع خاص تمتاز به من بين سائر الأشعار ...

أكبر الظن أن شاعرنا ليس عاشقاً متيماً ولا غزلاً متهالكا فهو يوافق « دانزيو » الشاعر الإيطالى العظيم فى قوله : « ما معنى أن يخلص الشاعر لامرأة واحدة ، وهل فى وسع الشاعر أن يجمع الجمال كله فى وجه واحد أو فى منظر واحد ؟ لا بد لخيال الشاعر من أفق لا نهائى دائم التجدد دائم التحول دائم الحركة » ولقد أجهدت نفسى فى أن أعرف لشاعرنا من شعره محبوبة واحدة تشقيه وتسعده وتهجره وتصله حتى يشعر فى حبه بالحرمان والسعادة فما وصلت إلى ما أردت أن أعرفه ... وقد يكون هذا « فى عقيدتى » هو السر فى أن شعر شاعرنا غنائى فطرى ، له جرس ورنين فى مفرداته وتراكيبه ، تشيع فيه المسرة والبهجة وتغمره البشاشة والطلاقة ...

يعجبنى من شاعرنا أنه صريح صادق ، يعبر عن إحساسه وشعوره وحياته بلا تدجيل أو مداراة ؛ فأنت لا تكاد ترى شاعراً من شعرائنا المعاصرين من يصرح فيقول :

ملأت بتفاحها راحتى ... وبت لكرمتها عاصرا

أو يقول فى التى « علمته كيف يحب وكيف يكره » :

إذا فتح الباب تحت الظلام ... فكيف ارتماؤك فى صدرها ؟
وكيف طوى خصرها ساعداك ... ومرت يداك على شعرها
وما هذه ؟ رعشة فى يديك ... أم الكأس ترجف من ذكرها
لقد دنس الجسد الآدمى ... حياة حرصت على طهرها
بكى الفن فيك على شاعر ... تسائله الروح عن ثأرها
نزلت بها وهدة كم خبا ... شعاع وغيب فى قبرها

كذلك لا ترى معاصراً يقول مثل قوله يحث صديقته فى « بحيرة كومو » على أن تتقى الحذر عنها وأن تعذره إن طغت روحه ، أو ثار جسمه :

ما ترين ؟ أفصحى ... إن فى عينك الخبر
الغريبان ههنا ... ليس يجديهما الحذر
نحن روحان عاصفان ... وجسمان من سقر
فاعذرى الروح إن طغى ... واعذرى الجسم إن ثار

أو مثل قوله فى « تايس الجديدة » :

أأنا الغريب هنا وملء يدى ... أعطاف هذا الأغيد المرح
خفقت على وجهى غدائرها ... فجذبتها بذراع مجترح
عرضت بفاكهة محرمة ... وعرضت لم أنطق ولم أبح
يا رب صنعك كله فتن ... كيف الفرار، وكيف مطّرحى

هذا شعر رائع جميل ، له وقع فى النفس ، ونشوة فى القلب وما روعته وجماله إلا من صدق تعبيره ، وصراحة أدائه ، ثم من حيويته واتساعه وغلوائه ...

كذلك يعجبنى من شاعرنا الرقيق أنه شاعر مصرى صميم — على الرغم مما يعيبونه به من أنه شاعر الطبيعة الغربية — فهو لا ينسى بلاده حتى فى تلك الأوقات الجميلة التى يقضيها فى هذه الأجواء السحرية الناضرة . بل إنه ليكون غارقاً فى لذته وبهجته وسكرته ، ثم يهزه الحنين لنيله الجميل ، فيمسك قيثارته ويغنى فى فخر ومباهاة :

قلت : والنشوة تسرى فى لسانى ... هاجت الذكرى فأين الهرمان
أين وادى السحر سداح المغانى ... أين ماء النيل أين الضفتان

* * *

آه لو كنت بمى تختال عيره ... بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره ... حلم ليل من ليالى كيلوبتره

وهناك فى « بحيرة كومو » — حيث الجمال والسحر — يهز الشاعر حبه لوطنه ، فينطلق قائلاً ، وهو جالس بين كؤوسه وغادته ، غارق فى نعيمه وحظه وصفائه :

أين وادى النخيل أم قاهريانه الفـــرر ؟

إن مما يزيدنى إعجاباً بهذا الشاعر أنه صادق فى شعره . وفىّ لفنه ، وأنه ذو شخصية مستقلة لا تندغم فى شخصية أخرى ؛ وأن لشاعريته وجهاً يميزها عن كل شاعرية ، ولألحانه رنة تعرف بها من بين سائر الألحان ، وفى كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة ...

لكم وددت لو كان بإمكانى أن أتخطى بالقارئ خطوة خطوة مع شاعرية صاحب « ليالى الملاح التائه » فهى فى تجوالها قد سلكت شعباً كثيرة ، وطرقت أبواباً عديدة ، ومن كل سياحة ساحتها قد عادت بآثار طريفة وتذكارات ثمينة . والديوان حافل بمثل هـذه الآثار والتذكارات التى تفسح مداه وتفرج صدر قارئه ...

وأخيراً ... لقد انتهيت بدون أن أنقد شاعرنا اللهم ، ويعلم الله أنى كنت أود أن أعثر على أغلوطة أو سقطة ؛ ولكنى عبثاً حاولت . غير أنه يسرنى أن أطلع شاعرنا على هنات طفيفة ما إخالها شيئاً ، فمثلاً قول الشاعر فى أغنية « الجندول » :

قلت والنشوة تسرى فى لسانى هاجت الذكرى فأنى الهرمان

كان الأحسن من ذلك أن يقول « فى كيانى » لأنى لا أتصور ولا يتصور أحد معى تلك النشوة التى تسرى فى اللسان . وفى الأغنية نفسها اضطراب فى صورها ، فليس فيها وحدة ولا اتساق . ولقد رزقنى الله حلاوة الصوت . فكنت إذا غنيتها على عودى وأنا منتقل على خيالى فى الجو الذى نظمت فيه شعرت باصطدام وحواجز تقفنى عن متابعة طربى خصوصاً فى مقطعها الأول . وفى الأغنية مقطع رائع وهو :

آه لو كنت معى نختال عبره بشراع تسبح الأنجم إزره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره حلم ليل من ليالى كيلوبتره

وأنا أذكر أنى قرأت هذا المعنى الجميل البارع الذى يعد أحسن ما فى الأغنية مترجماً عن الإنجليزية . فهم يذكرون أن الشعراء الثلاثة كيتس وشلى وليهند اتفقوا على أن ينظم كل واحد منهم قصيدة فى النيل فكان مما قاله ليهند هذا المعنى الجميل . وما كنت لأشير إلى هذا لولا أن الأدباء يرفعون هـذا المعنى إلى السماء . فأردت أن أبين أصله ... ويقول الشاعر « فى بحيرة كومو » :

ثمر ناضج الجنى كيف لا نقطف الثمر

وأنا أفهم أن الثمر هو الجنى

ويقول الشاعر فى « مصرع الربان » :

وغاب كل مشيد غير قبمة ذكرى من الشرف العالى وتذكار

والذكرى والتذكار معناهما واحد

ويقول الشاعر فى « مهرجان الزفاف » يريد السيوف :

أو ما لها الماضى فجن حديدها حتى تكاد بغير كف تمشق

والمتنبى يقول : « حتى تكاد بغير كف تضرب » وهو طبعاً أحسن من الأول . فكان حقه أن يأتى بالمعنى كاملاً

وهذه طبعاً هنات طفيفة لا تنقص من قيمة شاعرنا العزيز . وكفاه رفعة وسمواً أن تكون هذه مآخذنا فى وقت أصبحت فيه الدواوين الشعرية مهزلة وسخفاً ! ...

عبد العليم عيسى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و ٧٠ قرشا كل من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى مجلدين .

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس ليفشلد فرع القاهرة بعمارة رقم ٤ شارع المرايخ تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع الاضطرابات الجنسية والتناسلية والعقم عند الرجال والنساء وضعف الشباب والشيخوخة المبكرة ويعالج بصفة خاصة بالطريقة الحاسية طبقاً لأحدث الطرق العالمية والعيادة من ٢-٦ و من ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للتعريف بحالة المراسلين بعد أن يملأ كل منهم استمارة المعهد الخصوصية المعدة لذلك ويرسلها مع ١٥٠ مليماً ثمن الدواء الذى يمكن الاستغناء عنه إذا رغب

(سجل تجارى ٥٢٢٧)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع البستان — عابدين)